مديح المُثَنَّى
أو كانط ضدَّ هيغل

موسى وهبه

النص التالي للفيلسوف اللبناني الراحل موسى وهبه (1941 - 2017). هو من عيون النصوص التي كتبها في سياق مجهوداته ومقارباته النقدية لفلاسفة الحداثة.

وعلى الرغم من المساحة القليلة التي انبسطت فيها هذه المقالة، فقد شكّلت سطورها نواة لدراسات لأطروحة نقدية مقارنة بين عَلَمين من أعلام الفلسفة الحديثة هما كانط وهيغل.

أما ما تتميز به مقالة "مديح المثنى ـ أو كانط ضد هيغل، فهي في محاكاتها للمضمر الذي ينطوي عليه كل منهما حيال الآخر، ثم تظهير هذا المُضمر بأسلوبية تتسم بالبراعة والرشاقة واللغة والقص الفلسفي البليغ.

تجدر الإشارة إلى أن المقالة التي اخترنا استعادتها كانت نشرت افتتاحيةً لمجلة "فلسفة" في عددها الأول والوحيد الذي صدر تحت إشراف وهبه في خريف العام 2003.

المحرر

يأخذ هيغل على كانط، أو هو يأخذ عنه بالأحرى، كلَّ شيء تقريباً. يقارعه صنواً بصنو، ويحذو حذْوَه نعلاً بنعل.

وهو إذ يُطبِّق عليه منهجه في الاستيعاب والتخطّي، في النسْخ على ما كان يصحّ أن يُقال، يُطْبِقُ عليه من جهاته الأربع ويحيله إلى أمرٍ مضى من غير رجعةٍ على ما يحسب. يصنعُ معاصرتنا ولا بدّ ويمكّننا إذ يتجرّأ على الأنوار، من أن نتغرْغرَ بنقد الحداثة ومن أن نلعنَ الميتافيزيقا ونبْجَحَ بالبرُء منها.

قلتُ، ألعب كانط ضد هيغل، ألعب الاثنان ضد الواحد والموحّد، ضد الجَملة التي بمنزلة

الواحد العائد إلى ذاته؟ أستعيد كانط إذن. أعيده في مواجهة هيغل. أُعطيه الكلام فيروي هو وأُنصتُ إليه يقول:

"قلت (يقول كانط): يفخر هذا المعلِّم بأنه جاء بعدي. يصنعُ من "الجَيْء بعدُ" مقاماً: يعلن ما بعدُ أتمَّ مما قبلُ، ويزعم أن فيه يحقّ ما كان غير مستحِقّ. فَلِمَ لا أنهضُ إليه أعيده إلى حجمه الذي يستحِقّ!

"فيقول هيغل: لن تستطيع ذلك مهما فعلتَ. فأنا رسختُ في البداهةِ وصرتُ إلى الأمم. ثم أعلنتني النهايةَ والخَتْمَ وقلت: لا تفلسفَ بعدي. ثم تسامحتُ وأضفت: إلا على سبيل الشرحِ والتأويل، أو التطبيق أو الاعتراضِ على بعضِ ما قلتُ ببعضيَ الآخر. لكنني حسبتُ لكل اعتراضٍ ممكن حساباً مسبقاً. ألا ترى بعد قرنين إلا قليلاً على فيمياء الروح، لا أحد يدخل من الباب الذي "عيّنتُ للدخول؟

"قلتُ: خفّف الوطءَ ولا تكنْ دعيّاً. ألا ترى أنه يُعادُ إليّ أيضاً في كل مطرح، وإن بخفر واستحياء؟ ألا يعني ذلك أن لا شيء انتهى، أن لا شيء ينتهي لأن الأصل لا ينتهي، لا يتناهى تقول العرب.

"فانتفض وامتعض ثم قال: ومن هذه العربُ في آخر الأزمان، وفي أية ورطة تورّطني؟ كيف لي أن أعلن عن نفسي إذن في هذه اللغة العتيقة؟ كيف أقول فيها ال أنْزش (ansich) وال أَنْفورزِشْزَيْن (Anfursichsein)؟ وكيف لي أن أزعمَ أنني أُأَفْهِبُكَ (aufhebe dich) أو أنني أقيمُ das absolute Wissen، ألا ترى أكثرهم علماً ماذا فعل بـ مَيْنْ Phanomenologie des Geites حين عرّبه بعلم ظهور العقل؟ ما كان ينقصني إلا أن أعبرِّ عن نفسي بالعربية!

"قلتُ: فات الفَوْتُ الآن. وها أنت تعبرّ بالعربية، وبعربية فصحى أيضاً. فادفعْ عن نفسك إنْ كنتَ من الصادقين. أقرَّ أنك افتريتَ عليّ وقوَّلتَني ما لم أقُلْه، وأشهدْتَ عليَّ الجمهور. استنجدْت بالحسّ المشترك. وما كان ينقصُني سوى أن تزعمَ أني أكادُ أقول الحقَّ الذي عليه أن يأتي بالضرورة على يديكَ فعيّنتَني السابقَ بلا مفرّ.

"قال هيغل: مازلتَ تُقيمُ حيثُ أنت: في الفاهمة الثابتة إيّاها. في منطق عدمِ التناقض. في ميتافيزيقا الهويّات الجامدة. في الثنائيّة البائسة. أما آن لك أن تتخلَّى عن معاندتك لما يفقأُ العينَ بجلائه وتحقُّقه؟ أن تقرَّ أخيراً أن الاثنين انشقاقُ الواحد، وأن تأليفَهما آتٍ لا محالةَ في ثالث يستعيد الواحدَ أو يعود إليه ليكون أولاً من جديد؟ أما آن لك أن تُدرِك أنيّ بجدلي

التأليفي أنقذتُ ماءَ وجهِك إذ عيّنتُك سابقي. فانصرفْ عني الآن ودعْني أعُد إلى مهنتي.

"كنتُ أودّ أن أقول لهيغل: لم أكنْ سابقاً لأحد ولا مكمّلاً. ولا أرى ما يجري على أساس سابقٍ ومسبوق. بل إن ما كان يشغلُني كان غيرَ ما يشغلُك بالمرّة. كنتُ أودُّ أن أقول له.. لكنه كان قد صار كبحّارة عولِسْ، أصمَّ لا يسمع، وكان قد صرف وجهه عني وراح يشرحُ لطلاّبه ويتكلَّمُ عليّ كما يُتكلَّمُ على غائب.

قال: "الخلاصةُ الأخيرةُ لفلسفة كانط هي الأنوار. لكنَّ للأنوارِ معنى أنَّ كلَّ شيء، كلَّ وجود، كلَّ تصرّف يجب أن يكون شيئاً ما مفيداً؟ أي إنه يجب بالضبط ألاّ يكون له إنيّة، وأن يكون مجرّد لَدُنَ غير. هذا الغيرُ هو الإنسان، أو الوعي-الذاتي العامّ (الاوتِعَاء) أي جميع الناسِ بعامّة.

وهكذا فإن التفكير (يقصد العقل) عند كانط يرى إلى ذاته كمطلق وعينيٍّ وحرٍّ وحدٍّ نهائيّ، فلا مرجعيّة تعلو مرجعيّته، ولا مرجعيّة لأيّ نصابٍ ما لم يتقدم النصاب بأوراق اعتماده أمام التفكير. لكنَّ هذا التفكير هو مجرد تفكير ذاتي: كلُّ ما يكون، بما فيه أن يكون الله، هو مجرد واقع من وقائع وعيي أنا... إلاّ أنّ التفكير الذاتيّ هذا لا قدرةَ له على عرْفِ ما هو إنّاً ولدُناً. لا يمكنه أن يعلمَ أيَّ شيءٍ حقيقيّ، بل هو يعلم الفَيْنُمان وحسب".

وتنحْنحَ ثمَّ تابع رافعاً نبرتَهُ قليلاً: "وهكذا تدْخل فلسفة كانط في الوعي، - وهذا جيّد – لكنّها تثبّته من وجهة النظر هذه بصفة عرفٍ ذاتيٍّ ومتناه. فتنهي الميتافيزيقا الفاهميةَ بما هي دغمائيّةٌ موضوعيةٌ، لكنها تستبقيها في الحقيقة بوصفها دغمائية ذاتيةً وتتخلّى عن السؤال عمّا هو حقيقيٌّ إنّاً ولدُناً...

"عند هذا الحد من التعليم استغرقتُ في الضحك، بل قل ابتهجتُ أيضاً لقدرة هذا المجادل على قول الشيء نفسه بأشكال لا تُحصى فتوهم بأنه يتقدّم بالسامع إلى أمكنة أخرى: هنا مثلا تعني الميتافيزيقا المنهج فقط، والمنهج غير الجدليّ الذي يتعامل مع المعاني بوصفها ذات ثباتٍ نسبيّ.

وابتهجت أيضاً لعلمي أنّ ما لم يسامحني عليه هذا الأصمُّ هو ذميّ الجدليات وعدّها منطقياً للغلط لا للحقيقة. ولذا لا يفتأ ينعتني بالفيلسوف الثنائيّ. (ولو عرف العربيّة لكان قال: فيلسوف المثنى) ولا يفتأ يُلخصني إلى ثنائيات ثابتة: ثنائيّة الفينمان والنومان. وثنائيّة المكان والزمان. وثنائيّة الحساسية والفاهمة. وثنائيّة الفاهمة والعقل وثنائيّة الأفهوم والحدس، والأفهوم والأمثول (الفكرة) وثنائيّة الإنشاء والتنظيم.

بل تلك الثنائيّة التي لم يغفرها لي قطّ، عنيت ثنائيّة الكون والوجود (Sein und Dasein) – لم

يكن هايدغر قد ولد بعد، سامحه الله هو الآخر أيضاً - في الكلام على الكائن الأسمى. وهو حين يتطرّق إلى تمييزي هذا ويذكر أمام طلابه تفريقي الشهير بين مئة دينار فعلية ومئة دينار متوهّمة يستشيط غيظاً ويقول: حسب التصوّر الكانطيّ نمكث أبداً في الفرق (يقصد الفرق الذي يحدثه التفكير): فالثنائيّة هي الملاذ الأخير: كلّ جانب يصلح لدُناً كشيءٍ ما مطلق.. إلى أن يخرج عن طوره ويصرخ: ليس ثمة ما هو أكثر حمقاً من هذه الفلسفة.

"والآن، وقد انهارت معظم العوالم الجميعيّة (أو الجملانيّة) التي استلهمت الجَملة أو الجُملة (Totalitat) الهيغليّة، الآن بتُّ أرى بشكل أوضح أهميّة إصراري على استبعاد الجدل وتحوّل الواحد جدليّاً إلى آخر. وبتّ أكثر فهماً لغضب هيغل من هذا الإصرار، المعاندة على ما يقول. فعندي مثالاً: المكان والزمان حدسان أصليّان لا ينحلّ أحدهما في الآخر ولا يتحولّ إليه. وهما ليسا فرعين مشتقّين من الحساسية بل هي تقوم بهما بالأحرى. هما الأصل، يمكنك القول، وهي الملحق. وهما لا يتشابهان. ولا تعجبني معاملتهما على طريقة هيغل. فالمكان تكون أقسامه معاً (sind zugleich) إلى ما لا نهاية ويكون بعضها برّان بعض. أما أجزاء الزمان فلا تكون معاً ولا تتجاور بل تتوالى وتندثر في الزمان الواحد اللامتناهي. ولا ينفع معي إغواء هيغل بقوله إني أتلمّس وحدتهما أو أكاد حين أقول في أقسام المكان إنها تقوم معاً. إن المعيّة هنا ليست أواناً من آونة الزمان. وأنا مصرّ على ذلك وباقٍ على التفريق، أي على تفريق ما هو فارقٌ أصلاً مثلما أنا باقٍ ومصرّ على التفريق بين الفينمان والشيء في ذاته المجهول. وعلى هذا التفريق أقيم قوله كلّه وإن كره الأقربون. وهما عندي ليسا فقط لا يتشابهان بل لا ينتميان أصلاً إلى طبيعة واحدة ولا إلى عالم واحد.

ويضحكني - يبهجني إصرار هذا المعلم على أنّ التمييز مرحليّ وأن الشيء حين يتظاهر بكل ظاهراته لن يبقى شيءٌ ما فيه ليقال عليه: شيء في ذاته.

وأطرب لمصير البودينغ (الكعكة) التي تعجن وتطبخ وتُزْدَرَدُ فلا يبقى أي شيء - في - ذاته منها وقد ازدردتَها... قلت أطرب لما صارت إليه: ذريعةً شعبية وانتصاراً للحسّ المشترك ضدّ الشيء - في - ذاته، وضدّ التفلسف في الحقيقة. فهيغل لا يتورّع عن الانتصار بالحسّ المشترك مثلما لا يتورّع عن اشياء كثيرة أقلّها العودة إلى الموقف الطبيعيّ والنكوص دون النقد بحجّة عدم الحاجة إليه بعد مساواته زوراً بالمعرفة.

لن أتوغل اليوم أكثر. أردت فقط أن أرفع في وجه هيغل والسلالة الهيغليّة المعلنة أمِ المضمرة:

إن الاثنين أسبق من الواحد. إن الواحد لا يسمى واحداً إلا لأنه ليس اثنين أو لأنه أحد اثنين.

وان هذه الأسبقية هي، أنطولوجياً وإبيستيمياً غير قابلة للنسخ. فلا رجوع إذن عن الأنوار ولا حياء في الحداثة. وعلى المتغرغرين بما بعدهما أن يروا ماذا هم بنا فاعلون!"

قلت في مائتي سنة على رحيل كانط:

قل الحمد لله الذي أنطقنا الفصحى وعلّمنا المثنّى فأمكننا من القول: "المرء بأصغريه" و"الوطن بجنحيه". وقوّلّنا: إنسانٌ لا إنسٌ واحدٌ (إنسٌ للألفة وإنسٌ للوحشة، حتّى إذا ما غلب هذا صرت مستوحشين)، وأرانا أنّ الجسد في الحقِّ جسدان، يلتفّان حول بعضٍ ولا يختلطان، فإذا ما انحلّ العقد صار مجرد جثمان.

وأنَّ الكائن القائم إيّان لا إيٌّ. فصرنا، لمقتضى الحكمة وسلامة العقول القليلة، نسأل: إيّايَ تعني؟، أو نقول: إيّاك أقصد بالسلام، وإليه إيّاه أشير، فنعامل المثنّى معاملة المفرد ونستتر على النون بالإضافة، كي لا يقع خبزنا على الأرض فتلتفت إلينا وتأكلنا الخنازير.